رواية

يا ليته يعلم

راما الرمحي

https://facebook.com/Quotes.Muath/

الصباح هو بداية التفكير بك..

والمساء هو بداية الشوق إليك ...

والنوم هو بداية الأحلام بك...

أنت في كل أوقاتي بداية ...لن تكون نهاية أبدا...

و رحلةُ حُبكَ أشبهُ بالسّفر:

((اللّهم هوّن عليَّ سفري هذا ، و اطوِ عني بُعدَه))

أمي .

أورثتني جينات القلم والكتابة ...

فكتبت كثيرا ...لكنني أعجز عن الكتابة عنك..

ففيك تضيق الحروف ... وبحضرتك أعتزل الكتابة..

صديقاتي...

لكل واحدة منكن زهرة في بستان قلبي..

توأم روحي و عقلي ...تتشابه أفكارنا جداً... وكأننا خلقنا من رحم واحد ((لين دردر))

صديقة طفولتي ...((لين الشويكي))

الصديقة الأم ومرشدتنا للصواب ...((استبرق))

دكتورتنا و معلمتنا الصغيرة ...((شادية))

كنتنَّ القلم لروياتي ..و أوراقٌ تساعدني على الاسترسال في الكتابة

كل الشكر و الامتنان لدعمكن لي .. ووقوفكن جانبي بكل الأوقات ..

أدامكن الله لقلبي ..

هذه الرواية ستحاكي مشاعرك ...

إن عشت الحرب ومفارقة الوطن ..

إن خانك أقرب صديق لديك..

إن جربت الغربة من أجل الدراسة ...

إن كان لقلبك قطب واحد وحبه من طرف واحد..

قد يكون الجزء الأول ..أو يكون الأخير..

كتبت من قلب لا يستطيع الكتمان ..ومن يد لا تفارق القلم...

كتبت بكل المشاعر ..فرح..حزن..حب ..ألم

كتبت بكل الظروف ...في قمة الانشغال ..وقمة الفراغ..

كتبتها من أجلي...ومن أجل من يقرأ الآن ليجد نفسه فيها ولو بسطر واحد أو شعور...ومن أجله أيضا..

ليكون سرّي المعلن ..

لكن...

يا ليته يعلم ..

لطالما أحببت التناقضات كأي أسديّةٍ يسكنني العناد وحب الاختلاف ...

حتى الخط الزمني الذي هو بالنسبة للآخرين بدايةٌ ونهاية ..

بالنسبة لي نهايتي سبقت البداية ..

نهايتي هي بداية أحداث الربيع العربي...ذلك الربيع الذي لا يشبه أي ربيع..

وروده سوداء ...

أشجاره رماد..

وتغريداته أصوات صواريخ و براميل متفجرة..

بحره دم أحمر ..

حتى أنهاره الجارية كانت هاربةً من الحرب..

أضطرتنا الظروف إلى مفارقة أرض العراقة دمشق ..هي ليست مفارقة و إنما مفارقات ...

مفارقة وطن ..

بيت ..

أهل ..

حب ..

أصدقاء ..

طفولة ..

وما تبقى من ذكريات لم تقضِ عليها الحرب ..

تركت 17 عاما من عمري بذكرياته وحملت ما اتسعت به حقيبتي و انتقلت إلى وطنٍ استقبلنا ولم تستقبله قلوبنا ...

كنت في 16 من عمري حين تعرفت على حبي الأول الذي كان يسكن في إحدى محافظات سوريا ...جمعتنا مواقع التواصل الاجتماعي ...كما جمعنا الحب على الرغم من اختلاف مذاهبنا الدينية ..فالتناقض يسكنني حتى في أدق تفاصيل حياتي ...

كنا نتحدث بالهاتف ساعات طويلة ..قد تكون مكالمة جماعية تجمعني به و بصديقتي المقربة "رهف"

من أكثر الجراح التي آلمتني و أنا في مطار بيروت هم "وليد" و "رهف"..

كيف لي أن أتركهم تحت هذه السماء التي تمطر ناراً ..

وفوق هذه الأرض التي تنبع ألغاماً..و أذهب إلى الأمان والاستقرار...

تمنيت لو آخذهم معي ..لكن قوة القدر كانت أقوى من كل ما تمنيت ....

أوصيته على رهف و أوصيتها على وليد...

و وعدتهم بالتحدث معهم حال وصولي إلى الوجهة المجهولة

.....

هبطت طائرتنا لندخل أرضاً لا تشبه أرضنا.

لونها الأخضر لا يشبه أخضر الشام ...زهورها ذات ألوان باهته ...

هل ما أراه صحيح ؟ أم أن حبي للوطن أعمى نظري عن كل بقاع الأرض ليبقى الأجمل !

أيقنتُ تماماً أننا خسرنا جنة الأرض ،وخسرنا قلوبنا التي تعلقت في بقايا الركام ..

سارعنا في حجز فندق لنرتاح فيه من تعبنا النفسي قبل الجسدي لعلَّ النوم يكون المخدر الحلال الوحيد الذي يخفف مصابنا...

.....

اتصلتُ برهف ،فردت بكل لهفة كأنما غبت عنها عقداً...أخبرتها أننا وصلنا إلى بر الأمان وإنني بخير.

لم أستطع محادثة وليد فالجميع حولي..أرسلت له سلاماً مع رهف و أخبرتها أن توافيه بأخباري...

.....

كنت على مشارف الثانوية العامة ...

إذ أنتظر نتائج قبولي بالفرع العلمي الذي سيشق طريقي إلى حلمي ...طريقي الذي أجد في نهايته كلية الطب ..

كم تمنيت أن أدخلها !

فتحت حسابي المدرسي و تفقدت علاماتي ،

لقد قُبلت ،

قبولي هو القطرة التي تسبق الغيث ..

كانت هذه البشرى كزهرة خرجت من تحت الأنقاض ..أو كضحكة طفل بين أصوات البكاء..لكنه فرح مؤلم !

كيف سأكمل دراستي ؟

تركته سؤالاً بلا جوابٍ ..مع جملة الأسئلة التي لا إجابة لها

ها هو الأسبوع الثاني لنا في أرض المهجر.. وأنا لا زلت أتقلب في فراشي لعله كابوس و سأستيقظ منه ..

خرج الجميع لاستطلاع البلد الجديد ، وفضلت البقاء لأتصل بوليد و اطمئن عليه ...

-حبيبتي ما حال البلد التي نزلتِ بها ؟

*تشبه كل شيء إلا الوطن

- لكن الأمان هو الركن الأساس لاستمرار الحياة

* وما أريده من ركن فقد تزعزعت كل أركاني

- ستعتادين الحياة ..

* وهل ستعتادها أنت من بَعدي ؟؟

- لن نبتعد سنكون معاً قريباً ..

كلماته كانت مطمئنة جداً وكأن أحداً سكب الماء على قلبي بعد طول اشتعال ،فرحت لإخماد ناري و لم أعلم أني أصبحت رماداً

عادوا أهلي إلى الفندق بعد ساعات من التجول في أرجاء المدينة ..علمت أن أبي استأجر لنا بيتاً وقال لنا مواسياً :

"يشبه بيتنا بالشام وكأنَّ الأرض قد تبدلت و حملت لنا بيتنا"

لم اكترث لهذا الخبر لأنني أعلم أن بيتنا لا يشبهه بيت و إن تشابهت هندسة البناء وترتيب الحجارة ..

كانت كل خطواتنا نحو الإستقرار تدخل أوردتي كجرعة دواء مر و كأنها تؤكد لي أنه "لا عودة"

.....

ها هي الأيام تلاحق بعضها وقد اقترب العام الدراسي الجديد ..

بدأت رحلة جديدة للبحث عن الإستقرار الدراسي بين العديد من المدارس ...

سأدخل الثانوية العامة في بلدٍ جديدٍ و مناهج جديدة و أسلوب تعليمٍ جديد في بيئةٍ جديدةٍ و ارتباك مرحلةٍ مصيريةٍ ..

كم هي صعبة تلك الضربات المتتالية على زهرة حديثة النمو

ضعيفة الجذور...

قد تقتلعها نسمة هواء ...

فماذا عن تلك الرياح العاتية التي عصفت بها !

اللهم قوة ..

ذهبنا إلى بيتنا الجديد ولم ترافقنا سعادة الشيء الجديد ..كنا سنفرح لفكرة البيت الجديد لو كنا في الشام ولكن شعور التهجير القسري يطفئ فرحة كل شيء ....

رتبت حقيبتي و اخترت غرفةً لتكون غرفتي ..

وحالما انتهينا من ترحيل أمتعتنا ...

استلقيت على السرير مفرغةً فيه كل أوجاعي ..

واتصلتُ برهف ...

الهاتف مغلق ..والإنترنت منقطع عن سوريتي ..ألقيت بهاتفي وكأنه أحد المشتركين في جريمة غربتي ..و اختبأت تحت غطاء السرير من وحش الغربة ...

الحياة لم تخلق للعيش ..خلقت للتعايش ..مؤمنةٌ جداً أننا لسنا في دار خلد حتى نبقى في نعيم ..وأن حالتي التعيسة ما هي إلا جزءٌ من عدم الرضا والسخط الذي يتنافى مع الإيمان...

كما تتنافى مع شخصيتي القائمة على الضحك والمرح ..

هل البكاء يعيد وطناً سليباً؟؟

أم يقرب المسافات إلى الحبيب ؟؟

ليس فيه إلا دمارٌ للجسد ،خليةُ تلو الأخرى ..حتى أموتَ بحسرتي ..

قررت أن أتعايش و أعيد نفسي التي أكاد أشكُ أنني تركتها في بلدي..

لكنني أستطيع ..

ثم بدأت مشاهد الحرب و صورها تمرُّ أمامي و غفت عيني..

أيقظني صوت الهاتف ، رهف تتصل بي فأجبتها :

-أقلقتني جدا..

* كانت خطوط الهاتف مقطوعة

-علمت هذا ،كيف حالك ؟

* أتجهلين حالنا؟

-بل أجهل حالي

*ألم تخرجي من سجن الإكتئاب ؟

-بلا ،وكأن اليوم هو يوم حريتي

* أحسنت القرار ،قرارتك دائماً صائبةٌ إلا.....

- إلا ماذا ؟

* إلا قرار ارتباطك بوليد !

-وهل كان الحب يوماً فكرةٌ صائبةٌ ؟

كلماتها لم تكن مطمئنة لكنني مللتُ التفكير..

تسارعت الأيام ..
لم يكن في الحقيقة تسارعاً إنما كان سقوطاً حراً ، أي تسارع في السالب بفعل القباحة الأرضية لا جاذبيتها نحو الهاوية

.....

كزهرة شقت الأرض و خرجت من تحت الركام كانت رحلتي التعليمية في الثانوية ..

بدأ الفصل الدراسي الجديد..وجوهٌ لا تشبهُ الوجوه ..ألوانٌ لا تشبه الألوان ...ولكنني سعيدة بتوفيق الله الذي أحاطني من كل جانب ..وسهّل عليَّ أمور التسجيل و تبعاته

لم أتعرف على أحدٍ ..ولم أحاول الوصول إلى أحد ..فضّلت الجلوس وحدي و التحدّث مع رهف ..

ومضت الأيام روتينية كهذا اليوم تماماً..

.....

أحسستُ أن المسافات بدأت تأخذ مفعولها في علاقاتي..

وأخذ البرود يسيطر عليها...

ما عادت رهف تنتظر مكالماتي بتلك اللهفه ..وما عاد وليد يشتاقني ..

أحسست بالجفاء ..

سألتهم مراراً و تكراراً عن سبب برودهم ...فكانت حجتهم الظروف الصعبة التي لم أعد أشعر بها ..فأنا الآن في الأمان المقيم وكأنهم يتحدثون عن أمان الجنة ...

لست بتلك السذاجة حتى أصدق كلامهم ...أردت الاجتهاد أكثر لمعرفة السبب ...ولكنني غير جاهزة لجرعة ألمٍ جديدةٍ ..

.....

لم أكن مهتمةٌ لمعرفةِ سبب برودهم ...فكثير من الألم لا يؤثر فيه ألم جديد ..

فعند الغرق تتساوى الأعماق..

لكن تأتيك الإجابات رغمَ أنفك ...حتى إن تركتها ولم تبحث عنها ...

اعترفت لي رهف بحبها لوليد و أنهما على علاقة ..

رهف لم تخني فقط ..بل خانت حبيبها الذي هو في الأصل صديق وليد ..

و وليد لم يخني وحسب .. بل خان صديقه الذي كان حبيب رهف ..

ولكن لم يكترثوا إلى حجم الخيانة ..

وكان حبهم أقوى من أن يختبئ حتى أمامنا...

وجهّتُ رسالةً إلى وليد مبطنة بالجرح العميق : أنني أرغب في إنهاء العلاقة بيننا ..

ولم أذكر له السبب ...كما لم تردني إجابة ..

فكانت تلك النهاية مع كل شيء يربطني بالوطن ..سوى الأرض

لم أعد أشتاقُ الشام إلا لترابها ..

.....

بعد إنهاء دراستي الثانوية كان علي أن أغادر..

لأكمل دراستي في بلاد أكثر غربة ..

و أنتقل من غربة الوطن ...إلى غربة الأهل و الوطن معاً..

كنتُ صديقة أمي بحكم أنّي ابنتها الأولى و الوحيدة ..

ومدللة أبي...

لم أعتد الخروج لوحدي..

ولم أعتد شراء حاجياتي بنفسي ..حتى أنني لا أعلم ما الذي أحتاجه ..

فلم ينقصني شيءٌ يوماً ما ...

كنت على يقين بأنني سأسافر للدراسة ...ولم يكن الأمر مقلقاً بالنسبة لي ..

حتى أن الغربة لم تأخذ يوماً حيزاً من تفكيري ... فقد ذقت مرارَها ... لم أعلم أن هناك علقماً ينتظرني

****

طلبت أمي مني أن نجلس سويّاً ..

لم تكن تفعل هذا من قبل ... فكل حديثنا بلا موعد و كلامنا بلا استئذان ...

شعرت أن هناك أمراً مهماً ...

خرجت و أمي ... و سرنا على شاطىء البحر ..

أمي تعلم أني أحب البحر جداً ...

تعلم ماذا تعني لي حمرة السماء ساعة الغروب ...

لا شيء قادر على إزعاجي في حضرة هذه الظاهرة الكونية التي تنسيك كل شيء ..

تمدك بطاقة إيجابية منقطعة النظير ...

أنا و أمي و الغروب و الصمت يسكن بيننا ..

كسرت أمي لحظة الصمت وقالت :

أنتِ على مشارف حياةٍ جديدةٍ ، لن أحدثك عن الوحدة و المسؤولية التي تنتظرك ..أعلم أنك لن تدركي كل ما كنت سأقوله لذلك سأختصر الحديث ..

الحياة ستخبرك بكل شيءٍ في حينها ..

لكن ..

ما يجب أن أقوله أنك كبرتِ ... و ازدتي جمالاً ... و زادت العيون التي تنظر إليك ... وستزداد أكثر و أنت في الغربة ..

ابنتي ، الله أمرنا بلباس يحمينا و يسترنا ...هو ليس حجاباً للجسد ..و أنما للأفعال ...سينهاك عن فعل المعاصي حياءً منه..

رفضته بقوة في البداية .. لكن عقلي كان مؤمناً به ...و بأنه الأفضل ..نفسي الأمارةُ بالسوء كانت تأمرني بالرفض ...لكن نفسي اللوامة كان لها التأثير الأكبر..

و التخوف من عطاء الله لي و كرمه معي على معصيتي و عدم التزامي زادني قوة لأقاوم نفسي الأمارة بالسوء ...

فقد سمعت حديثاً لرسول الله صل الله عليه وسلم : (إذا رأيتَ الله يُعطي العبدَ على معاصيه ما يحب من الدنيا فإنما هو استدراج)

وقد أكرمني الله كثيراً ووفقني كثيراً ولم يرد لي دعاءً ....

خجلتُ من تعلقي بملذات الدنيا أمام عطاءه ..

لم يأخذ التفكير بهذا الموضوع معي سوى أيام ..

قررت ...

سيكون لي لباساً ومنهج حياة ..

.....

لحظةُ صعود الطائرة كانت هي اللحظة الأولى لي وحدي ..

جلست في مقعدي ..أحسست بالمطب الأول ؛أمي ليست بجانبي سأُقلع إلى جزءٍ آخر من الأرض ..و أترك روحي مع عائلتي .

بدأت تتضح حروف الغربة الحقيقيّة أمامي ..

وصلت المطار ..

لم يأخذ أبي جواز السفر مني ليكمل إجراءاتي ...

علي أن أكملها وحدي ..

لا بأس..

سأستقل سيارةَ أجرةٍ ..

بدأت السيارة تجوب المدينة ..

الشوارع لا تشبه شوارع الشام ..حتى لا تشبه شوارع الوطن البديل الذي اعتدته ..

تبدلت عليَّ تضاريس الأرض من جديد ..

أحسست بالضياع ..

لكن لابد من الثبات ..

****

وصلت إلى البيت الذي سأسكنه لخمس سنوات ..

فتحت الباب و دخلت و أغلقته خلفي ..

رد علي صوت صدى إغلاقه ..ولم أسمع صوتاً غيره

هممتُ أن ألقي التحية ، ثم صمتُّ ..فمن يسمعني سوى نفسي !!

الجو باردٌ ، أشعلت المدفأة التي لاطالما ظننتها مصدر الدفء في منزلنا ... لم أعلم أن دفء العائلة هو من كان يقينا برودة الشتاء ..

تكورت في مكاني .. (غمٌّ) ملأ قلبي ..(رهبة) من المكان الموحش ..(برودة) لا تدفعها مدفأة ... و رُبِطت مشاعري (بتاءٍ مربوطة) حتى تفصلت حروف الغربة أمامي و عرفت كيف تشكلت تلك الكلمة ...

غداً هو اليوم الأول في الجامعة ... علي أن أنام باكراً كي أستطيع الاستيقاظ على صوت المنبه الذي كنت أتجاهله دوماً منتظرة أمي أن تجلس بجانبي و تداعب خصلات شعري : "قومي يا كسولة "

أظنها أولى المسؤوليات التي كنت سأتحملها ...

المكان موحش جداً..أغمضت عيوني وحاولت التفكير بإيجابية وأن هناك مستقبلٌ مشرقٌ ينتظرني ...

انغمست بالتفكير ثم أخذني النوم..

استيقظت في منتصف الليل أشعر بجوعٍ شديدٍ..

فأنا لم أتناول عشائي ..

قد نسيت ذلك !

كنت أنسى مقومات حياتي لأن هناك من يقدمها لي دائماً قبل أن أحتاجها ..

ربما كنتُ اتكاليّة جداً .. سآخذ الموضوع بإيجابية، فالغربة ستصقل شخصيتي و أصبح أكثر قوة و مسؤولية !

أشعر بالعطش أيضاً ...

لكن لا يوجد ماء،

من أين سيأتي الماء وأنا لم أشتريه ؟

أبي ليس هنا حتى يحضر لي قارورة المياه التي لم ألتفت لها يوماً ..هل هي فارغة أم ممتلئة !!

ربما لن تصقل الغربة شخصيتي وحسب ...بل ستصقلني أنا أيضاً..

عدت إلى النوم وأنا أفكر بالمسؤوليات التي وقعت على عاتقي فجأة كالجبال ..

عرفت أن الدلال قد دمرني ..

وسيجعل حياتي أكثر صعوبة ..

لكن لا بأس ..

*****

لم استيقظ على جرس المنبه كأول خطوة فشل في تحمل المسؤولية ...لن أتمكن من حضور محاضرتي الأولى ..

وصلت إلى الجامعة بعد أن انتهت أول محاضرة ..

مرحلة جديدة من الغربة ..

عادات وتقاليد مختلفة عنا ...

لهجةٌ لا تشبه لهجتنا..

كطالبٍ جديدٍ في الجامعة يعيش في مرحلة توتر ..

هل سيكوّن صداقاتٍ ؟

هل سيتأقلم !

هل كان هدفه صائباً و مناسباً في اختيار التخصص ؟

كنتُ أحلم أن أدخل كلية الطب و دخلت أختها (كلية الصيدلة)...ولعلها خيرٌ لي

عشت كل هذا بتوتر مضاعف..

******

انتهى اليوم الأول بسلام ..الجو كان مريحاً نوعاً ما على الرغم من التوتر الذي يسكن جنبات قلبي ...

لكن وجودي بين الناس أفضل بكثير من الوحدة في المنزل ..

وجلوسي مع بعض الفتيات اللواتي لا أكاد أفهم ما يقولون و سماع أصواتهنَّ أفضل من سماع صوت الصدى و صوت الهواء الذي يضرب النافذة ليلاً ...

ربما ستخلق لي عائلة أخرى في الجامعة لا تغنيني أبداً عن عائلتي ولكن تهون علي مرّ البعد..

****

ذهبت إلى السوق لأول مرة ...

اشتريت بعض الأشياء التي أحتاجها ...

أدركت كم كان أبي يتعب في حمل الأكياس الممتلئة ..

أحسست بآلام الظهر التي يشتكي منها..

كثيرٌ من الأمور لم ألتفت لها أبداً...

أصبحتُ الآن أكثر إدراكاً لتفاصيل الحياة

عدتُ إلى البيت و أخذت أرتب و أضع الأغراض في مكانها المناسب ..

أمي كانت ترتب الأشياء لوحدها ولم تطلب مني المساعدة أبداً..

كانت تقوم بأعمال المنزل كاملة ..

ثمَّ تستقبلنا بابتسامةٍ عند عودتنا من المدرسة ..

أما أنا ، فقمت بجزءٍ من أعمال المنزل بتضجر ..

ثم رميتُ نفسي على فراشي البارد و أخذتُ نفساً عميقاً ..

كم هي صعبةٌ المسؤولية !!

كم هي صعبةٌ الحياة !!

*****

السابع عشر من فبراير ..

أعددت كوب قهوتي الصباحية ، و ركبت سيارتي و اتجهت إلى الجامعة ..

يبدو أنني وصلت مبكراً ..

الساعة الآن الثامنة والنصف ، بقي نصف ساعة على محاضرتي الأولى ..

الجو باردٌ جداً ...

تزاحمت قطرات الندى على زجاج السيارة ..

قهوتي ...فيروز ...و جو بارد كما أحب ..وسكينة تملأ تجاويف جسدي ...

يومٌ جميلٌ ..بلا سبب

سرت إلى الكلية و السماء تمطر بهدوء ...

مختبئةٌ تحت مظلّتي من قطرات المطر ...

كان الأولى بي أن أختبئ من الحرب ...

من الغربة ...

من الوحدة ...

لا من تلك القطرات التي تنزل بكل هدوء و جمال ..

يسير أمامي ...

ولم يختبئ تحت مظلّة ..

اشتد المطر ,,

ولا زال يسير بنفس السرعه و استقامة الظهر و الثبات ..

عند هطول المطر ..

نرى الجميع يمشون بسرعة ..

وكلٌّ منا يحتضن نفسه ليشعر بقليل من الدفء...

لكنه لم يكن كما الجميع ...

لم يسرع لحظة اشتداد المطر ..

لم تلتف يديه حول نفسه ليخفف البرد عنها ..

الكثير من الكبرياء ..الثقة .. الشموخ ..

من يكون !!

دخل الكلية أمامي ..

إذاً هو زميلي في التخصص ...

صدفةٌ جميلة ..

لكنه دخل قاعة المحاضرة أمامي أيضاً..

صدفةٌ أجمل ..

نحن معاً ..

******

.....

مرت الأيام و كأنها سنين ..

يطول اليوم في الغربة ..

وفي غياب الأهل تمر الساعات كئيبة..

حتى عقاربها تمشي ببطء كما أمشي أنا عندما ينهكني الحزن,,

وفي إحدى ليالي الغربة ، سيطر المرض على كل خلية من خلايا جسدي ... لم أعد أقوى على النهوض ..

أدركت أن المرض كان جميلاً و أنا في بيتي ...

كم اشتكيت من أوجاعي وانشغلت بها عن إدراك النعم حولي..

عندما يسرع أخي الكبير للصيدلية لاحضار الدواء ..

ويُحضر أخي الصغير لي الماء ..

ويأتي أبي بالطعام الذي أحبه ..

وتتفقدني أمي في كل ساعة من الليل ..

كنت أستسلم للمرض كليّاً ...

لكن هيهات أن أستسلم الآن ..

عليَّ النهوض و معالجة نفسي بنفسي ...

آلمتني الوحدة جداً..

فاق ألمها المرض..

قمت و أنا أرتجف ..

وأمشي وأنا ارتكز على الجدران ...

أخذت الدواء و اغتسلت كي أُنشِّطَ نفسي ..

فلا مكان للمرض في الغربة ..

يجب أن أكون قوية ..

حدثتني أمي و قد أخبرها قلبها بأنّي لست بخير..

تظاهرت بالقوة والصحة ...

فلا ينبغي أن أقلقها و أنا بعيدة عنها ..

سيهون المرُّ عندما أعود بشهادتي ...سيهون كل شيء..

*****

الرابع والعشرون من مارس..

كنت أقف مع صديقتي المقربة أمام باب القاعة ...

محاضرتنا ستبدأ بعد خمس دقائق من الآن ..

كان ذلك الشاب الذي التقيته تحت المطر قبل أكثر من شهر يقف أيضاً عند باب القاعة ..

سألت صديقتي ما اسمه ؟

فأجابتني.

******

.....

كنتُ أنتبه لتحركاته ...

يبدو أنه خلوقٌ ...

ذكيٌ...

ملتزمٌ...

يبدو منقطع المثيل...

****

.....

بعد أن ذقت مرّ الخيانة ...فقدت ثقتي بكل الرجال

مؤمنة أنا أن جميع الرجال لا يصلحون للحب ...

وأن جين الخيانة مزروع في المادة الوراثية عند كل رجل على هذه الأرض...

طهرت قلبي من الحب و تبت عنه..

لن أعود له أبداً ...

لكن ..

هل سأعود !!

كيف سمحت للحب أن يطرق بابي من جديد .. أويقع الإنسان في نفس الحفرة مرتين !!

علمت أن الحب لون من ألوان العذاب ..

كيف سأكرر غلطتي مرةً أخرى ؟؟

لم يُشفى الجرح بعد ولو مرَّ عليه عامين على الأقل ..

لكن يبدو أنني وقعت ..

ومرّت الشهور ....

تورطت فيك أكثر....

*****

قلبٌ تقلّبَ فوقع بالحب و أبى أن يتوب ..

و أحس أن الحب المكتوم سبيلٌ لمغفرة الذنوب ..

عيون تطوف في أرجاء المكان باحثةً عنك ..

أو عن أي شيءٍ يدلُّ على قربك ...

تنكسر عيني عندما أراك تقترب ...

ويمتلئ القلب فرح و حسرة ..

كيف لا!

وأنت لا تعلم بوجودي !

بحبي لك ...وخوفي عليك !

كم هو مرٌّ أن ترسل مشاعرك ولا يستقبلها أحد ...

كلهم أقرب منك لكنك الحلم البعيد..

كم حدثت نفسي في المرآة ..

متخيلةً نفسي أمامك ..

أخبرتك بكل ما يزعجني ..

بحبي ..بشغفي..

ثم أخبرت نفسي أن تستيقظ من أحلام اليقظة !

كم أغمضت عيوني و استجمعت أنفاسي و حاولت أن تصلك مشاعري بلا شبكه اتصال أو أقمار صناعية ...

لطالما آمنت بطاقة الإنسان الهائلة التي تصل بلا وسيط ..

لكن ..

انهار كل إيماني مع فشلي بالوصول إليك !

أتعلم أن ذلك القلب الذي لا تعلم بوجوده قد فتح لك صماماته على مصراعيها ..

استقبلك و انقبض عليك ..

لم يسكنه سواك ... ولو مر به أحدهم

صعب هو قلبي ... صعبٌ جداً

لكنك كنت الأصعب

من فبراير إلى فبراير ...

إلى نوفمبر ..

عامٌ و تسعة أشهر ...

أيامٌ روتينية...

لا جديد سوى المزيد من الاعتياد على الغربة ..

المزيد من تعقيد الدراسة ..

و المزيد من حبي الصامت...

حتى أمام نفسي ..

قلبي لم يخبر أحداً..

حتى أنه لم يخبر الدم الذي يمر به مع كل نبضة ..

لم يخبره بأمر ذلك الضيف ..

وهل سيصبح الضيف مقيماً؟

لم أحاول الاقتراب ..

ولن أحاول أن ألفتَ نظره ...

سأبقى كما أنا ...

ساكنة بلا حركات ... كتاء التأنيث بالمجتمع العربي...

لا محل لها من الإعراب ..

حتى تضمَّ فتصبح تاء المتكلم الذي يعبر عن مشاعره ...

يكتب عن حبه ..

حتى تضمَّ فتعربَ فاعلاً ...

تاء التأنيث تحتاج أن تضمّ..

تحتاج الإحتواء ...

تحتاج للتعبير..

ولو بنظرة ، لتعرب...

انقضى نصف المشوار ...اعتدت الغربة و الوحدة ..

أصبحت أقوى ..

كم صقلتنا الحياة..

أنضجتنا..

تعلمت في السنتين ما لم أتعلمه ب18 عاماً قضيتهم في أحضان الأهل...

***

جرحٌ جديدٌ من جراح الغربة ...

سيتزوج أخي وأنا في أقصى الأرض ..

لن أراه باطلالته الملكية في البدلة السوداء ..

لن أرى الفرحة التي ترويها عيون أمي..

سأكون بين الأوراق و الكتب والجميع يتزينون لحضور زفاف أخي..

حتى فرحتي كانت بعيدة ..

سَكّنتُ آلامي ببعض الصور التي أُرسلت لي عبر الانترنت..

وعبّرتُ لهم عن مشاعري ببعض الوجوه المبتسمة والقلوب التي وفرتها لنا مواقع التواصل الاجتماعي..

وبعد انقضاء الحفل ، حدّثتُ أمي بمكالمة مرئية..

و أخبرتني تفاصيل الحفل و ما جرى به من أحداثٍ جميلةٍ..

حدثتني أيضاً عن فرحة أبي و ابتسامته التي أشتاقها حقاً...

وعن أملهم و أحلامهم في اتساع العائلة و استقبال إضافةٍ جميلةٍ من الأحفاد ..

عن استعدادهم لمشاعر الجد و الجدة ..

حدّثتني عن الدلال الذي سيحظى به ابناء أخي ،حتى أنّي شعرتُ بالغيرة منهم قبل وجودهم ..

ثمَّ كلّمتُ أخي وباركت له زواجه..

كنتُ أتمنى أن أعانقه ..

أن أعبرَ له عن فرحتي

لكن،

هيهات أن تكون الفرحة كاملةً في الغربة ...

الثلاثون من نوفمبر..

كانت أول كلمة بيننا ...

لم تكن ذات قيمة ..

كانت كلمة واحدة ..

سألتني عن إجابة سؤال في أحد الاختبارات ..

و أجبتك بكلمة واحدة أيضاً ..

لكنها دقّت طبولَ قلبي..

و بدأت خلايا الدم بالرقص على نغماتها ..

و اتسعت حجرات قلبي لتستقبل المزيد من الدم "كصالة أفراح"

صماماته لحّنت أصواتها ،فتحت على كلمة منك و أغلقت على صداها ..

احتفالات في جميع أجهزة جسمي ..

و يحمل الدم معه الجلوكوز للدماغ كحلوانٍ لتلك الكلمة ..

والسيالات العصبية تبارك للقلب بزيادة نبضاته ..

و زاد كرم دمي على جميع خلايا جسدي..

و توسعت أوردتي و شراييني ..

الحب هو أن تسقط من مرتفعٍ ثمَّ تمدُّ لك يدٌ لتمسكك كي لا تموت..

لكنك ستبقى معلقاً..

أن تُمسَكَ من يديك الاثنتين هو الحل الأكثر نجاةً و أقل ألماً..

أنتَ و إن كنت معلقاً، لكنك متزن ..

مهما تألمتَ فإن ألمك موزعٌ على كلتا يديك..

لكن أن تحب إنساناً لا يحبك أو على الأقل لا يعرف أنك تحبه تكون كمن أُمسكَ من يدٍ واحدة..

سيكون كل الثّقل و الوجع على يدٍ واحدة..

لن تكون متزناً أبداً..

ستكون أقل ثباتاً..

قد تفضّلُ السقوطَ و الموت على ألم يدك التي لم تعد تحتمل المزيد ..

الرابع عشر من ديسمبر ..

الساعة الآن 2:22 مساءً ..

امتحاننا في الساعة الثالثة ...جالسةٌ و صديقتي في الكليّة ..أشرح لها بعض النقاط التي لم تفهمها قبل الامتحان ..غارقةٌ بكل تركيزي بين الأوراق والكتب ..

الكليّة في هذا الوقت تضجُّ بأصوات الطلاب ...

الجميع يدرسون ، ينتهزون اللحظات الأخيرة قبل الامتحان ..

مررت أنت بالتزامن مع ارتفاع نظري عن الكتاب ..التقت عيوننا .. فأنزلت عيني بسرعة ، لا أعلم لِمَ أردتُ التأكد مرةً أخرى أنك أنت من رأيته فعلاً..

أظن أن عقلي أنكر هذا اللقاء ..

بعد أجزاءٍ من الثانية رفعت نظري لأتأكد ..

كُنتَ قد ثبّتتَ نظرتكَ الأولى ..

فالتقت عيوننا من جديد...

أحسست بالذنب ، فالأولى كانت نظرة عفوية ..

و الثانية مع سبق الإصرار ..

لم يكن هذا لقاء عيوننا الأول ..لكنه كان الأكثر وقعاً في قلبي..

اقترب الامتحان ..

الجميع ينتظرون عند قاعاتهم ..

يفصلنا ممر طويل ..لكنّي استطعت أن ألتقط نظراتك من بعد على الرغم من قصر النظر الذي يمنعني من رؤية الأشخاص البعيدين ..لكن في مثل هذه الظروف الاضطرارية يكتمل نظري ...ستخدمك عيونك عندما تحتاج ...ستكون صديقك الذي لا يخون ...

قلبي لا يخيب ظنّه ..بدأتَ تشعر بي ...

نعم ، بدأت تشعر...

تقول الكاتبة "أثير النشمي" في إحدى رواياتها : "في ديسمبر تنتهي كل الأحلام" ...

وأنا في ديسمبر حلمي فيك ابتدأ..

أحسست أن الحياة توقفت ، و غدوت أسمع الأصوات ولا أحلل الكلمات ..

أرى الأشخاصَ ولا أفسر ملامحهم ..

و كأنما تعطلت عندي كل مراكز الإدراك في الدماغ ...

فلم أعد أُدرك إلا أن اللقاء أصبح ممكناً..

فأن تلتقي العيون هي الخطوة الأولى ..

ثمَّ ستلتقي القلوب ..

مؤمنةٌ جداً أنها ستلتقي !

*****

صباح الخير إلى تلك العيون السوداء التي سرقت قلبي ..

أبدأ يومي بدعاء الصباح : " الحمد الله الذي أحيا قلبي بحُبّكَ بعد ما أماته وإليه النشور "

سأقوم الآن و أجهّز نفسي لأذهب إلى الجامعة ..

أوقفت سيارتي في أحد مواقف الجامعة ، وجلست أحتسي كوب قهوةٍ تشبهك تماماً ..

مُرّةٌ كحبك و بعدك ، ولكنني أحببتها حد الإدمان ..

هناك سيارةٌ تصطف أمامي لا أعلم من صاحبها !

لم أعِرها الكثير من الاهتمام ..

كنتُ منغمسةً بالتفكير بك مع كوب قهوتي وصوت فيروز ..

لكن قلبي يخفقُ بشدة كلحظة اقترابك ..

و إذ بك تترجل من السيارة و قد أرسلت عيناك سهماً أصاب قلبي ..

الصباح الذي يبدأ بك هو فعلاً "صباح الخير"

سنلتقي بعد خمسة دقائق في المحاضرةِ نفسها ..

نظرتُ لك نظرةَ اللامبالاة و عدم الاكتراث ، حملتُ كتبي و أغلقتُ سيارتي و ذهبتُ مسرعةً إلى المحاضرة ، وأنتَ خلفي ..

ليتني أستطيع عبور "حاجز الدم في دماغك" الذي لا تستطيع عبوره إلا الأدوية ذات التأثير على الدماغ و المخدرات ..

ليتني أستطيع أن أعبره فأقوم بالتأثير على دماغك حتى تحبني كما أحببتك .. ليتني أستطيع أن أكون جرعة دوائية تعطى في وريدك لتحبني أسرع ، وحتى لا أقضي الكثير من الوقت للوصول إلى قلبك

أنت في الحب الدواء المفضل أو كما نسميه في عالمنا

“Drug of choice”

وبغزلٍ صيدلانيّ :

"you are my drug of choice”

الثاني والعشرون من ديسمبر..

الطلاب مجتمعون في الكلية ..و أصوات الدراسة تعلو ..بعد ساعة من الآن سيبدأ الامتحان ..الجو غائمٌ ..السماء رمادية .. رمادية مثلك ...

يوم تشعرني نظراتك أن اللون الأبيض سيكون قريباً..

و يوم تدخلني بموجةٍ من السواد و عدم الاكتراث..

رأيتك تدخل الكلية و تتجه نحو كرسيٍّ يبعد عني بضعةَ مترات

اخترتَ الكرسي الذي يلتف وجهه للحائط ..

وجلستَ عليه ..عيناك تطالع الجدران ..

كنتُ أتأمل اختيارك لذلك الكرسي الذي لن يجلس عليه أحد وهو بهذه الوضعية !

حتى سلوكياتك كانت مختلفة ، غامضة و يشوبها الكثير من العمق ..

لم تكلّف نفسك بأن تغيّر اتجاه الكرسي..

لست أدري أذلك شيءٌ من الكبرياء الذي يسكنك ..أم أنك تفضل الابتعاد عن الضجيج حتى في نظرك ..

وضعت ألف سببٍ لسلوكك...لكن صديقتي ضحكت وقالت : "مفصوم"

لم أنظر إليك بتلك السطحية ..يسكنني حب استطلاع الشخصيات الغامضة ..تحليل المواقف ...فهم الاحداث ..

أحب كوني عميقة بينما يطفو الجميع على السطح ..

عميقة ،بينما ينظرالجميع للأمور بنظرة عابرة وأنا أذوب بالتفاصيل

لكن ليس بكل الأوقات ولا بكل الأشخاص ..

أنا عميقة فقط بالأشياء التي أحبها ..

أحببت اختيارك للكرسي الذي لن يختاره أحد ..

أحببت تميزك ، تفردك في كل شيء ..

حتى في تنسيق ألوان ملابسك ..

في طريقة تسريح شعرك..

ولو لم تكن مميزاً جداً لما لفتَّ قلبي الذي لم يعهد أن يقع في حب أحد ..

"أحببتك ليس لأنك الأجمل ...بل لأنك الأعمق ..

فعاشق الجمال في العادة أحمق" لمحمود درويش

****

ذات مرة، كنا نعمل في المختبر نفسه ..كنت أُحضّر المواد التي تلزمني في التجربة و جئتَ أنت لتحضّر موادك أيضاً ...

كنت تقف بالقرب مني ...قريبٌ جداً وما أبعد قلبك عني..

طلبت مني أن أعطيك أحد المواد ما زلت أذكر تماماً صيغة الطلب و اسم المادة التي طلبتها مني ...ناديتني باسمي الذي كنت أستبعد أنك تعلمه...

بدأت أشعر باختفاء أنفاسي لا أدري أهي تختبئ خجلاً كما تخجل كل حواسي منك ..

أم إنها خافت أن تتعالى فتفضح نفسها فآثرت الانقطاع ..

بدأت أسمع دقات قلبي ترتفع ..

و يداي تنتفض..

لم أتمالك نفسي ، فخرجت من المختبر بلا استئذان..

ذهبت مسرعة لأرى نفسي في المرآة ، لم أرى وجهي بهذا اللون من قبل!

التقيت بصديقتي فسألتني :هل أنهيتِ العمل بهذه السرعة؟

فقُلت : لا ، لكنني لم أعد أطيق البُعد القريب ..

قالت لي: أنتِ تبالغين في شعورك ،فلتغسلي وجهك و تعالي معي ستعودين للمختبر و أنا سأنتظرك في الخارج ..

انهيت العمل ..

و توجهت لسيارتي و دعوت الله أن أصل إلى المنزل بأقل الخسائر ..

نسيت القيادة ، ونسيت نفسي أيضاً..

أشعر بالضيق اللامبرر بينما من المفترض أن أشعر بالفرح ..

وصلت إلى البيت و أنا أعلم أن العناية الإلهية هي من أوصلتني بأمان ...

أنا لم أنظر في المرايا أثناء القيادة ،حتى لم أميز اللون الأحمر من الأخضر في إشارات المرور ..

دخلت للبيت و دخلت في موجةِ بكاء..

كم أفتقد حضن أمي في هذه اللحظة ...لا أعلم ما بي لكنني بحاجةٍ للبكاء ..

في غربتي ،لا يوجد حضنٌ ألجأُ إليه ...

لذا تكورتُ حول نفسي و احتضنتني ..

أحسست أن كل الدنيا ضاقت بي، وأن كل أعصابي تؤلمني ..

أطفأتُ الأنوار و انطفأ قلبي ونمت..

أدركتُ اليوم كيف يكون الحب في القلب..

أدركت أنه يربك وظائفه..

يزيد نبضاته..

حتى أنه يمشي في الدم ..

يسري في الأعصاب..

ترتعش يداي ..

تؤلمني أعصابي..

"الحب يحولك إلى كتلة مشاعر ..

قابلة للموت ولأي سببٍ تافه .." مقتبس من رواية حب في زمن الجاهلية

سيدي،

ليكن حضورك هادئاً..

متعبةٌ أنا ..متعبةٌ جدّاً..

لا دواء سواك ..وأنت المرض و الدواء في الوقت نفسه..

ليت كل الأدوية تشترى ..

لاشتريتك بأغلى الأثمان ..

ولكنَّ ثمنك قد يكسر كبريائي ..

فأفضّل أن أبقى مريضة بك إلى الموت..

يقولون : حبٌّ من طرفٍ واحد لكنّه زلزل كلَّ أطرافي ..

مسكين أنت يا قلبي ..

محاطٌ بضلوعٍ مصنوعة من الكبرياء و الكتمان ..

محكومٌ مؤبد خلف قضبان التربية..

لن يسمح لك بالخروج ولو مت عطشاً !

اهدأ و أوقف نبضاتك..

أحس بي يا قلبي فأنت الأولى بالإحساس بي..

سألتني صديقتي ذات يوم:

-ماذا بعد كل هذا الحب الدفين الذي لن يتعدى أسوار قلبك؟..كأي شرقيّة ستحبين ، ويتخمر الحب في قلبك ثمَّ يموت أو تموتين أنتِ!

* وإن كنتُ شرقيّة ؟!

-هذا يعني أن قصتك محتومة النهاية، ستتوقفين عن حبه أو يتوقف قلبك!

*حقيقةً أنا لا أواجه مشكلة في الاعتراف له!

-وهل ستعترفين؟؟

*أنا لست بفتاةٍ تقليديةٍ ، ولا تحكمني العادات و التقاليد .. لا يهمني إن كانت فكرة معينة تعجب معظم الناس ..أنا أفعل ما يقوله لي ضميري ..ما يؤمن به عقلي ..وما يرضي قلبي ...لا يعني كلام الناس لي شيئاً...أنا قررت أن أكون مميزة ..أن أكون أنا، منذ كنت في رحم أمي..أفكاري هي أفكاري ولن أمشي مع القطيع لأُرضيهم

– ستعترفين إذاً ؟؟

*لا..

-وأين المشكلة إن كان ما يهمك هو أن ترضي ضميرك وحسب؟!

* المشكلة لا تكمن بالحب ..الله لايحاسبنا على قلوبنا ..هو يعلم أنّه مُقلبها ، وأنها خارج سيطرتنا ..
حتى أنه جلَّ جلاله طلب من نبيه صلَّ الله عليه وسلم أن يعدل بين زوجاته بالمعاملة لا بالحب !
المشكلة بالسلوكيات التي تتبع ذلك الحب ..أنا لست مستعدةً لإقامة علاقةٍ مع شاب ..نتحدث لساعاتٍ طويلةٍ و نتبادل كلام الحب ..أن نمشي معاً ..ونخرج معاً ..هذا لا يرضي ضميري..
والأهم من ذلك ..
عندما قررت أن ألتزم باللباس الإسلامي قبل سنتين، كنت مدركة جيداً أنه ستر للأفعال قبل الجسد ..
وأنني يجب أن أحافظ عليه كما حافظ عليّ..
أنا بلباسي نموذجٌ للدين ..ولن أرضى أن أسيء لذلك اللباس أبداً ..
لا يهمني إن علم أنّي أحبه!!
لكن لن أتنازل عن مبادئي من أجل الحب..

****

يبدأ الأسبوع عند سكان هذه الأرض يوم السبت لكنه
بالنسبة لي يوم الأربعاء..
وينتهي أيضاً يوم الأربعاء..
أسبوعي هو الساعات التي تجمعني بك ..
كل الأيام من دونك لا تعدُّ ولا تحسب...
ها قد انقضى الفصل ..
ولا أعلم هل سيكون لنا لقاء بغير ممرات الكلية ؟؟
هل ستجمعنا محاضرة أو مختبر ؟؟
هل سيعود شغف يوم الأربعاء من جديد!!
أم سيكون يوماً آخر ؟
لا أذاقني الله بعداً عن روحٍ رأيتها السعادة ..

*****

الثامن والعشرون من ديسمبر..
شهري المفضل الذي لم أميّزه عن باقي أشهر السنة قبل
أن أجتمع بعيونك..
كان الأربعاء الأخير ..
أحبُّ الأربعاء لكن ليس الأخير ..
كنتَ تقف أمامي لساعتين على الأقل !
أستطيع الإحساس بعيونك عندما تسترق النظرات..
وكعادتي لا أعير أيّ أحد أيّ اهتمام ..

لم أنظر للجهة التي تقف بها أصلاً و كأنها زاوية حُرّم النظر إليها ..
منشغلةٌ عنك بكل ما يظهر من حواس ..
وقلبي و عقلي منشغلون بك..
وكيف تدري بذلك ؟!
مختبئ هو عقلي تحت جمجمة أمينة لا تكشف أسراره
وقلبي يسكن وراء ضلوع أعتقد أنها مستقيمة ، لو كان فيها اعوجاج لافتضح شعوري ..
أضحك مع صديقاتي وليست كلماتهم من تضحكني ..
رؤيتك تدفعني للسعادة ..
السعادة التي تجعلك لا تتوقف عن التبسُّم ..
التبسم الذي مصدره أنت ..
هل تعلم أنك سعادة لقلبٍ خفي ؟
هل تعلم أنك دواءٌ وشفاء ؟!
يا ليتك تعلم !

****

يومٌ مليءٌ بالتوتر والارتباك..
امتحانٌ صعبٌ ويحتاج الكثير من الجهد و الدقة و السرعة..
كنت أتمنى أن يجمعنا مختبرٌ واحدٌ نعمل فيه !
لكنني أتمنى أيضاً ألّا نجتمع، حتى أستطيع إتمام ما عليّ بدقة دون تشتتٍ أو رجفةٍ باليدين!
أسرعتُ لأرى توزيع أسماء الطلاب على المختبرات ..
كان اسمك مزيّنٌ تلك القائمة ، التقطته عيني قبل أن أرى اسمي ..
نسيت نفسي و اسمي في حضرة اسمك ..
لا أدري ماذا يمكن أن أفعل لو كنتُ في حضرتك التفتُّ ،
رأيتك تَرقُبني وأنا أبحث بين الأسماء ..
خفضتُ بصري و انسحبتُ مسرعةً..
لم نكن معاً ، لأول مرةٍ أفرح لتواجدك بعيداً عني !
دخلتَ أنتَ مع المجموعة الأولى ودخل قلبي معك ليرافقك بالدعاء ..
كنتُ في الخارج أنتظر لأدخل الامتحان حال انتهائك منه ..
خرجتَ منهكاً...

همستُ بيني وبين نفسي : " آمل أن تكون قد أتقنتَ العمل "
جاء موعد امتحاني..
أنت ستعود إلى البيت الآن ..
فقد أنهيتَ جميعَ محاضراتك ..وأنا سأبقى داخل المختبر ساعةً ونصف..
كنتُ أحضّر المواد المطلوبة وأنا أفكر فيك..
و ادعو الله أن أحظى برؤيتك كجرعةٍ إضافةٍ ، فاليوم هو آخر يوم للدوام ،ثمَّ عطلةٌ للاستعداد للامتحانات النهائيّة ..
لا سبب لبقائكَ في الجامعة لوقتٍ متأخرٍ ، لكنني آمل ذلك ..
خرجتُ من المختبر وكلّي أملٌ بأنني سأراك ..
اتجهت نحو الدرج وهممت بالصعود ..
و إذ بك تنزل عنه ..توسطتَ الدرج ..لن أستطيعَ الصعود..
ابتعدتُ ووقفتُ جانباً وكالعادة تلتصق عيناي بالأرض عند رؤيتك .. تختبئ تحت جفون الحياء و تسبح بماء الكبرياء..

ذهبتُ وصليّتُ و صديقاتي العصرَ..
وقررنا أن نختتم الدوام باجتماعٍ على الغذاء في أحد المطاعم ..
ثمَّ خرجنا من باب الكلية ..
كنتَ تقفُ في الخارج ..
أحسست أنّي أتنفس السعادة و أُخرجُ ثاني أُكسيد الاكتئاب من جسدي ..
مشيتَ و صديقك أمامي ..
كان صوت ضحكاتك يملأُ المكان و صداها يعلو فالجامعة خاليةٌ ...
و عقلي خالٍ إلّا منك ..
انتقلت لي عدوى سعادتك في لحظتها..
لاأعلم لِمَ كنتَ تضحك..
ولِمَ أنتَ سعيدٌ!
لكنني أدعو الله أن تدوم تلك الضحكة ..
وأن تدوم أنت ..

*****

لم أعهد نفسي كثيرة الشكوى و الحديث عما ابتلاني الله به..
لكنّي اليوم كثيرةُ الحديث عنك..
نعم ، أنت ابتلائي وما أجمله من ابتلاء !
أنت سرّي المعلن إذ لا أتوقف عن إدخال اسمك في ثنايا الكلام ..
مهما تحدثت فأنا أكنُّ الكثير ..
أحبّك في الدقيقة مئة عام دون أن تشعر ..
لكن،
أنا الفتاة التي لم يلطخ شموخها العبث، لا يمكن أن أخطو إليك أبداً..
و أعلم أنك تشبهني في ذلك ..
متشابهان جداً في كبريائنا الذي سيقتلنا يوماً ما ....

السادس من يناير ..
اليوم الثالث من الإجازة .
عليّ أن استعدَّ جيّداً للامتحانات..
لكن هيهات !
وأنت لا تغيب عن بالي..
كتبتَ جملةً على أحد مواقع التواصل الاجتماعي ،
حروفها محمّلةٌ بالشوق والألم ..
وعبّرتَ بوجهٍ حزين في نهايتها ..
تألمتُ جداً لحزنك ..
لا سبيل لأخفف عنك ..
يا الله ، ما هذه الحياة التي تفرض علينا البعد عمّن نحب نراهم يتألمون و نبكي على حالهم بصمت ...ألا يحق لقلبي أن يعانق قلبه ويزيل همه !
هي حياةٌ واحدة لِمَ لا نعيشها كما نريد ؟ وبالقرب ممن نحب!
لما يتوجب علينا أن نراقب بصمتٍ و بطرق ملتوية قد لا يصدقها أحد ؟!
الأنثى عندما تعشق تتحول إلى جهاز مخابرات تبحث عن كل معلومة تريدها ..
تتحايل على التكنولوجيا لتصل إلى ما تريد ..
أراقب يومياتك وأنت لا تعلم ، على الرغم من أن هذا التطبيق يتيح لك معرفة من شاهد يومياتك ..

لكن في هذه المرحلة الصعبة من الحب و المحافظة
على الكبرياء سأفعل المستحيل لأكون اللامبالية التي
تعرف عنك كل شيء..
كنتَ قد أضفتَ إلى يومياتك صورة جديدة و عيونك
تلمع حزناً و ابتسامتك صفراء ..
يبدو أنها رسمت بصعوبة !
بربك سيدي ، لا تحزن ...
يجب أن تكون أسعد أهل الدنيا ..
"فحين تجد قلباً يخفق لأجلك ..
عيناً تبكي في سبيلك ...
روحاً تحبك لنفسك ...
لا لشيءٍ سواك ...
فأنت حينئذٍ أسعد أهل الدنيا "*

*مقتبس من رواية "حين يجمعنا القدر"

******

وفي كلِّ جمعةٍ تلتقط لك صورةٌ قبل ذهابكَ للصلاة ...
أنتظر الجمعة للجمعة لأرى تلك الصورة التي كتبتَ
أسفلها " طابت جمعتكم"..
طابت جمعتي بك .. وبك كل أيامي تطيب ...
أرى في قسمات وجهك الإيمان ..
وفي عيونك السكينة..
و بتفاصيلك تربيةٌ و أخلاق ..
لطالما حلمت أن يسكن قلبي قلبٌ سكنه الإيمان و خشية الله ..
وأتمنى أن أرى حلمي واقعاً..

كنتُ أقول دائماً ..
أريد من يوقظني عندما أنام عن الصلاة ..
من يذكرني عندما أنسى ..
من يقربني حين أبتعد عن الله ..
من يسكتني عندما أستغيب ..
أريده حياة للدنيا و طريقاً لجنة الأخرة ..
و أرى فيك كل هذا ..

أنت كزمزم بين الماء..
كيوم الجمعة بين أيام الأسبوع..
كيوم عرفة بين أيام السنة ..
كليلة القدر بين الليالي ..
كالحجر الأسود بين الحجار..
أنت شعرٌ موزون ...وكلهم نثر ..
عيونك جنةٌ و باقي تفاصيلك نِعَم ...

*****

شموخٌ كشموخ بغداد أرض الحضارة ..
وقوةٌ ورثتها عن قائدٍ فارق الأرض ولن يفارق كتب التاريخ ..
وعينان جميلتان كجمال دجلة و الفرات ..
وتَعَلُّقُ قلبي بك " كالحدائق المعلقة " أعجوبة من عجائب الدنيا ..
"تشبه العراق أنت .... تشبه العراق"

سألتني صديقتي ذات مرة:-
-لا أريد أن أستبق الأحداث ،لكن ماذا عن اختلاف الجنسيات بينكما !
*لم أفكر في هذا الموضوع أبداً !
- أنا لا أفهم معظم كلامه ، فهل تفهمينه ؟
* أفهمه ..وأحفظ كلامه أيضاً..صدى كلماته يبقى مدويّاً في عقلي..
- هل ستتجاهلين هذا الفرق؟
* أظن أن الحب لن يأبه يوماً لتلك الحدود ..
الحب لا يعرف الجغرافيا ..
ولم يدرس يوماً الخريطة ..
الحب عندما يقع يوقعك معه ..
لا أعتقد أن ثمّةَ أمرٍ يستطيع تحديد روحك ..
ستتعلق أرواحنا بأي شيءٍ تريد ..
لن تعرف عمراً ....ولا بلداً ...ولا ديناً ..
أرواحنا تتعلّق ونحن نتورط بها للأبد ...

-و إن كان حبه لا يتعدى حدود وطنه ؟؟
* فليتزوج إحدى فتيات وطنه ...الأمر يعود له ..لا علاقة لي بذلك ..

-وأنتِ تباركين زواجه أليس كذلك ؟؟
* ليَطُف الأرض ببلدانها ...لن يحبّه أحدٌ أكثر مني..
سيكون الحبَّ الأكبر مقداراً و كتماناً ..
-إذاً ، ابقِ كما أنتِ ....أحبيه بصمتٍ... حتى
يتزوج !
*لم يكن حبي صامتاً يوماً ما ..
الله يسمعه كلَّ يومٍ ..
لا حاجةَ لي أن يسمعه أحدٌ سوى الله ..
هو قادرٌ على تسيير القدر كما أراد قلبي..
****

.....

العاشر من يناير ..
لا أعلم أي دراسةٍ تلك التي تجعلك تنغمس فيها و
تنقطع عن جميع وسائل التواصل الاجتماعي ..
تمنيت أن أكون كتاباً لا يفارق عينيك ..
أو أكون قلماً فأفنى بين يديك ..
غيابك قاتلٌ جداً..
أنا أيضاً غارقةٌ في بحر من الدراسة لكنني في
حبك أغرق..
طمأنتُ نفسي بأن غيابك مبرر بالامتحانات ..
لكن قلبي مضطربٌ جداً ..

يحتاج خليطاً من الأدوية التي ندرسها لعلاج اضطرابه ..

ومع مغيب الشمس و نداء المغرب ..
توضأتُ و وقفتُ على سجادة الصلاة ..
خررت ساجدةً قبل التكبير ..
دعوت كثيراً ، طلبت من الله إشارة اطمئنان عليك ..
وطلبت أن يقربك أكثر أو يغسل قلبي منك ..
بالمختصر طلبت راحةً ، فوجودك بالمنتصف متعبٌ جداً..
أتممت صلاتي وقد سكنت كل أعضائي ..
يا الهي ما هذا الضعف !
كم كنت قويّة!
قويّةً جداً ، لكن قواي انهارت مع أول لقاء بك!
تفتت روحي بغيابك ..
وعقلي أُهلك بالدراسة ..
و جسدي التهمه كلا الوجعين !

******

لطالما قلت أن الجاذبية تختص بمواليد إبريل ..
فهم يشبهون الربيع ، يشبهونه جداً ...
حتى و إن أمطرت السماء فيه ،يكون المطر محبّباً..
يشبهون الورود في تفتحها ..
والعطر الذي يملأ الكون ..
من لا يحب الربيع !
ومن لا يحب مواليد إبريل !
ومن مواليد إبريل ، الثوريون تحديداً يمتلكون حدساً قويّاً و احساساً بالأشياء التي تدور حولهم ..
تصلهم إشارات الحب بسرعة ..
يفهمون كلام العيون..
تعابير الجسد..
أحب كونك ثوريٌّ ، وتمتلك تلك الصفات ..
وفي التاريخ قيل أن أشرف الخلق و المرسلين سيدنا محمد كان من مواليد إبريل أيضاً..
كم أتمنى أن تكون قد تشبعت بكثيرٍ من صفات رسولنا الكريم ..
أنا فعليّاً أرى فيك الكثير من الصفات النبوية ..

يُقال أن خير الأسماء ما حُمّدَ و عُبّد..و اسمك من خير الأسماء ، و أرى أن لك من اسمك نصيباً..

*****

أنتَ أ ملي ...ح لمي ... م رامي ... د ليلي للحب أنت
أدركتُ الآن كم هو الكون صغير عندما أحببتك
أضعاف حجمه ..
لا أعلم لِمَ أنت ؟ و لِمَ أنا ؟ ولِمَ جمعتنا هذه الأرض ؟
ليست وطني ولا وطنك ! لكن جمعتنا ..
كم هي أرضٌ مباركة !
الحبُّ سهمُ قَدَرٍ لا نعلم متى يصيبنا ..
قد لا يكون الحب الأول ..لكنني مؤمنة تماماً أن الحب لا يأتي إلّا مرة واحدة في العمر !
تعلم حينها أن حبك السابق لم يكن حبّاً ..و إنما كان كذباً على قلبك..
أتعلم ماذا قصد أبو التمام عندما قال :
"ما الحب إلّا للحبيب الأول" ؟
الحبيب الذي يسرق قلبك أولاً..
الذي تعلقت به عيناك عند أول نظرة ..
الذي عشش في عقلك أولاً..
وما سواه حاشاه أن يكون حبّاً..

كنت أظن أنّي بليدة ...بخيلة في مشاعري.. مجمدة الأحاسيس ..
لم أكن أشتاق لأحد ...ولا أهتم لرؤية أحد ...كنت لا أهتم إلا بنفسي ..
والآن أصبحت أنت نَفسي ..
"الأشخاص الرائعون لا يلتقون في البداية ..الرائعون لا يلتقون إلا بعد ما أصبح لكل واحدٍ منهم ماضٍ و تجارب "
و أعتقد أنك الإنسان الرائع الذي رسمته في مخيلتي وكان بنظري مستحيلاً..

كتبتُ يوماً:

"أحبيه كما أنتِ..
أحبيه كاتباً إن كنتِ كاتبة ..
تفهمون الحروف والفواصل و النقط..
تحللون الجمل بصورة مختلفة ..
حتى خلافاتكم تندرج ضمن نصوص أدبية نهايتها هي نهاية الخلاف..

وبعد كل مشكلة نقطة ..
تسيرون على السطور معاً ، وتقفون على الفواصل
بحلوها ومرّها سويّاً...

أحبيه كما أنتِ ..
أحبيه شاعراً إن أحببت الشعر و القصائد ..
تهديه مشاعرك في بيت فيردها بقصيدة ..
يكتب لك صدر البيت و تكملين عجزه فيعمر البيت و
يمتلئُ حبّاً..

أحبيه كما أنتِ..
أحبيه مجنوناً إن عشقتِ الجنون ..
أحبي شخصاً يفهم مصطلحاتك التي اخترعتها ..
لتكن كلماتكما شيفرات لا يفهمها سواكما ..
ليكن قريباً منكِ في العقل و الروح ..
أحبي شخصاً يشبهك .."

و رأيتك كما أنا ..

قد نلتقي ..وقد لا نلتقي !
قد ينعش قلبي من جديد قربك منه ..
وقد ينطفئ للأبد..
هل تراك تشعر بالعقل الذي لا يتوقف عن التفكير بك!
و إن شعرت .. هل تراك تستجيب!

*****

أتى أول يوم امتحان و عدنا أخيرا لأحضان كليتنا ..
كنت وقتها على قدر كافٍ من الاكتئاب حيث لا يستطيع إسعادي إلا أنت ..
لكن الحظ يلعب دوره في اللقاء..
كان امتحاني في غير مبنى الكلية ، ولم يجمعنا اليوم من بدايته ..
ذهبت لقاعة الامتحان والضيق يسكنني وقلبي مثقل بالهموم ..
شعورٌ لا يحكى ..
كنت مشتاقةً جداً لشقيقات روحي و صديقاتي اللواتي لا تكتمل حياتي إلّا بهنّ ..لكن لأول مرة ، لم يكن مفعولهن كدواء مضاد للإكتئاب ..

وقفت في صمت أنتظر بدأ الامتحان الذي درسته جيداً و أجبته بعكس ذلك تماماً..
لم أعد قادرة على قراءة السؤال ..
ليست نهاية الحياة ، و إن كان كفيلاً لزيادة جرعة الاكتئاب لأسبوع على الأقل ..
ذهبت بعدها للكلية و التقينا عند الباب ..
لم أنظر إليك أبداً وقتها و كأن اشتياق الأسبوع الماضي لم يكن له أي مفعول ..
فلغض البصر المفعول الأقوى بالنسبة لي ..
كنتُ بحاجة إلى معجزة تجعلني أبتسم..
لكن الضيق حين يأتي لا يترك مكاناً لأي شيءٍ آخر ..
يلتف حولك من كل جانب ..
عدّتُ إلى البيت و استقبلني الفراغ كالعادة ..
ألقيت حقيبتي أرضاً و رميت الكتاب الذي خذلني ، أو أن عقلي هو من خذلني ..لكن الكتاب هو من سيتحمل النتائج ..
جلست على سريري و فتحت جوالي على أحد حساباتك..
كنتَ قد حمّلتَ يومياتك عليه ..
عدّلتُ جلستي و أخذت نَفَساً عميقاً وفتحت يومياتك لأرى أنك ستسافر ..
أنت أيضاً !!

كل الأشياء الموجعة تأتي معاً ..
الآلام لا تأتي فرادى ..
هربتُ إلى النوم كعادتي حين تضيق بي الدنيا يتسع لي سريري..

****

كانت هذه الامتحانات متعبة جداً..
قفد قررت أن أطوي المسافات ..وأن أنهي دراستي بأسرع وقت ..
أجبرت أن أسجل مواداً تفوق طاقتي ..
غمرتني الدراسة من كل جانب حتى دفنت بين الكتب و الأوراق
الكثير من الضغط يسبب الإنفجار ..
تذكرت دراستي للمرحلة الثانوية وكيف كان لأهلي دور كبير في تخفيف الضغط عني..
كنتُ كثيرة الشكوى ..
أتململ من الدراسة فأذهب و أثرثر كثيراً أمام أمي و أشكو لها صعوبة المواد و شرح الأساتذة و دقة الأسئلة
كنت أُضرِب عن الطعام في فترات الامتحانات ..
كم يصعب الأكل تحت هذا الضغط والتوتر!

أمي كانت تحضر لي الطعام دائماً إلى غرفتي و
تجبرني على الأكل حتى أستطيع مواصلة الدراسة ..
كم كانت تلك اللحظات جميلة ،لم ألتفت لها قبل الغربة .
لم ألتفت للنِعَم التي تحيط بي..
غداً سأمتحن امتحانين ..
الدراسة لن تنتهي ..
أحتاج عمراً فوق عمري حتى أستطيع أن انجز المادتين معاً..
لا أملك وقتاً حتى أحضر لنفسي وجبة طعام تمنحني الطاقة لباقي يومي..
كان يأتيني الطعام و أرفضه ، يا ليت الماضي يصير حاضراً..
يجب عليَّ أن أقوم بنفسي و أن أعد الطعام لنفسي ..
لا أحد سيهتم بأمري ..
في الغربة لا تساعدك إلا يدك !
كم تمنيت أن أشكو الحِمل الذي يفوق قدرتي..
لكن لا أريد أن أقلق أمي ..فيتضاعف همها فوق همّ غربتي !

في غضون شهر أحببتك دهر..
الرابع عشر من يناير..
الشهر الأول على التقاء عيوننا ..
ربما حاولت أن لا أجدد تلك النظرة ..
خشيتُ أن تفهم ، لكن قلبي يتمنى أن تفهم !
أعيش الكثير من التناقضات في داخلي ..
أراك كل مطالبي في هذه الحياة ..التي لم أحياها بعد،
ولا أدري هل سأحياها !
أنت مُسَكّنِي و سَكَنِي وسكينتي و ساكني و سُكوني
وسكوتي و سِكّتي و سرّي و سريرتي و سروري..
أنتَ تعبي و متعبي ..
أنت قُوَّتي و قُوتِي ..
أنتَ روحي و راحتي و روحانيتي ..
أنت أملي و ألمي ..
أنت نَفسِي ونَفَسِي و تنفّسي و أنفاسي ..
أنتَ كل التناقضات الجميلة ..
القريب البعيد..
وما أقرب بعدك عني ..
وما أبعد قربك عليّ..
أنت أنا ...لكن أنا ليست أنت ..
وهل ستكون !؟
هل ستجتمع القلوب كما العيون ؟!

*****

السادس عشر من يناير ..
امتحان يخلو منك وكليّة لا تفوح بعطرك ..
الجامعة كئيبة ..
كم هو صعب غيابك ..
جلست أنظر إلى الباب الذي تدخل منه ..
تمنيت لو أراك تدخل ..أو حتى تمنيت أن أرى ظلك الذي حفظتُ إنعكاسه ..
كيف كانت تحلو الحياة بعيني من قبلك ؟
كيف كنت أراها جميلة!
لا تحسب علي أيام عمري التي سبقت لقياك ..
أنا لم أذق السعادة حقّاً قبل أن أرى عيونك ، و إن إعتقدتُ ذلك !
الألوان في غيابك تخجل أن تظهر إلا بالأبيض و الأسود..
و في حضرتك حتى الأبيض يشع و الأسود يلمع ..
كل الأشياء في حضرتك تختلف..
تبدو أتفه الأمور جميلة في نظري عندما تكون..

أحسد تلك العيون التي تراك الآن ..
أحسد الهواء الذي تتنفسه..
قطرات الماء التي تشربها ..
وتلك المدفأة الذي تتكور عندها ..
وذلك الجوال الذي لا يفارق يدك ..
أسلاك سماعاته التي تلتف دائماً على يدك..
كل هذه التفاصيل أحسدها ..
و يا ليتك تعلم !

*****

تسألني صديقتي على سبيل السخرية :
"في أي ساعة وقع هذا الحدث ، وفي أي تاريخ ؟"
يسخرون من كوني أهتم بالتفاصيل ..
أحفظ التواريخ ..
أحلل أسخف المواقف ..
تهمني لغة الجسد..
أفهم نظرات العيون ..
فما بالك لو كان الأمر يخصّك ..
سأجعل لتفاصيلك تفاصيل ..
نحن لم نتحدث يوماً..لم نتواجه أبداً ..لم يدر بيننا حوار
لم نقترب إطلاقاً..
لكن..
أفهم ما يدور في عقلك... أحس بفرحك و حزنك ..أعلم ما تحب وما تكره ..أعلم أنك تعشق ساعات اليد..بينما أعشق أنا الساعات التي تجمعني بك..أنت أيضاً تحب الفتاة الطويلة ...البيضاء...واسعة العيون...تحب العيون الزرقاء أيضاً..
أعلم أنك شخصية متفائلة ..لكن تغرقك الخيبات أحياناً..أعلم أنك تلوم نفسك كثيراً إن أخطأت ... لا تسامح نفسك بسهولة ...تفكر كثيراً... تحتاج للوحدة في بعض الأحيان ..تبتعد عن الجميع ..حتى أصدقائك ..

أعلم أنك إنسانٌ قنوع ، راضٍ بالقضاء و القدر ..
أعلم أنك لا تكتب إلا عندما تشعر ..
أفهم تعبيراتك مهما كان الكلام مبطناً..
لا يهم كيف توصلت إلى كل تلك الأمور..
أنا غارقة في تفاصيلك لدرجة لا تحكى ..
****

الثامن عشر من يناير ..
لم يبقَ غير اليوم إلا فرصة أخرى تجمعني بك قبل أن تعود إلى وطنك..
أنا أيضاً سأعود لأحضان عائلتي لا لأحضان الوطن الذي أصبح رماداً..
وطنك قد مرَّت عليه الحرب ..وتركت آثارها !
ووطني مرَّت عليه الحرب و أقامت به ..ولم تترك آثاراً لأي معالم بهذا الوطن !
العراق رجلٌ تلقى الطعنات بكل جسده و بقي واقفاً..
و سوريتي أمٌّ حاولت أن تحمي أطفالها تحت القصف لكنَّ صاروخاً مزّقها أشلاءً..
أحب أن أراك سعيداً ...لكن أمر عودتك مقلق بالنسبة لي !

أخاف عليك من تلك البلاد ..من الحرب ..ومن مخلفاتها..
و أدعو الله أن يحميك ويحفظك دائماً..

أقف أنا في الطابق الثاني بينما تحوم أنت في الطابق الأول ، أستطيع رؤيتك من الأعلى ..تبدو متوتراً جداً، لا عليك عزيزي سيخجل الامتحان و يحل بين يديك..
في الحقيقة أنا متوترة أكثر منك..

أنا شخصية قلقة جداً متوترة ، أفكر كثيراً ، ومع ضغط الامتحانات أعتزل النوم والطعام ..
أعتزل الحياة ..
لكنني متفائلة ..
دعوت الله كثيراً وما اعتدت أن أمد يدي لله و تعود خائبةً..
الساعة الآن 11:56 فقط 4 دقائق ويبدأ الامتحان ..
تذكرت نظرتك الأولى كانت في هذا المكان وفي امتحانٍ لنفس هذه المادة ..
ثمَّ فرّقنا بدأُ الامتحان ..

كان توفيق الله واضحاً في كل سؤال كنت أحلّه ..
خرجتُ بعد أن انقضى نصف الوقت ..الجميع منهمكون بالحل ..يبدو الامتحان صعباً.... اللهم سهّله عليه..
وقفتُ منتظرة خروجَ الطلاب ..لا أحد في الممرات سوى أنا و الكثير من الحمد على توفيق الله لي..
خرجتَ أنت وكأنك كنت تجاهد في القاعة ..
رأيت صعوبة الامتحان في عينيك ..
لا عليك ، لكل جوادٍ كبوة ..عوضها الله بامتحان آخر ..
وقفتَ و ارتديتَ معطفك ..

كنتُ أناقش مع زميلتي أسئلة الامتحان ..
لكنني أراقب تحركاتك و سكناتك ..
أمتلك قدرة عالية على التركيز عند وجودك..
التركيز فيك لا بشيءٍ آخر..
أحتاج أن أحسك بقلبي وعقلي و روحي ..
فباقي حواسي ساكنة و عيوني مستقرة ، لن تجعلك تشعر بالحب الدفين ..
خرجنا من الكلية ..
اتجهتُ إلى سيارتي و اتجهت لسيارتك ، التقت عيوننا و فرّقنا الطريق

أراك بعد أسبوع من الآن ..سيكون اللقاء الآخير في هذا الفصل الجميل ..

*****

الرابع والعشرون من يناير ..
صباح آخر يوم للدراسة ..غداً سنعود للحياة ..طالت إقامتنا بين ثنايا الكتب ..
غداً ستعود الألوان ألواناً ..
و تزهر ابتسامتنا الصفراء ..
أعتقد أن السعادة تنقطع عن الأرض منذ أن أرى جدول الامتحانات ..
لا أراها حتى في وجوه الناس ..أو أن عيوني تصبح كئيبة إلى حدٍّ يمنعني من رؤية السعادة..
أتململ كثيراً من الدراسة ،لكن دائماً ما أدعو الله أن يجعلها أكبر همّي ..
أخاف من تذمري و أنا غارقةٌ في النعم ..
وعند ذكر النِعَم ، يتحتّم عليّ ذكرك ..
غداً آخر لقاءٍ قبل السفر ..
لن يطول الغياب ،هي أيامٌ قليلة فقط و سنعود..
وأيامٌ قليلة ويعود السابع عشر من فبراير لقائنا الأول تحت المطر قبل عامين ..
لم أكن أعرف عنك شيئاً ولا حتى اسمك ..

لكنّي شعرت بتفرّدك ..
تميزك..
تيقنت أن الله لم يخلق من الشبه أربعين ..
لم يكن لك تسعٌ وثلاثون شبيهاً ...
حتى أنه لم يكن لك شبيه واحد..
كان وقتها قلبي حجراً ، لم أعتقد يوماً أنه سيلين..

******

عشرون عاماً وأنا أتعلّم الكتابة لأقف عاجزةً أمام أخر يوم..

الخامس والعشرون من يناير ..

لم أكن نائمة منذ يومين ، مرهقة جداً ، استهلكت كلُّ طاقاتي ..أنا لست بحاجة إلى إعادة شحن ،فبطاريتي لم تعد صالحةً أصلاً..
أحاول أن أفتح عيوني لأكمل اليوم فقط..
و عند إحدى الإشارات المرورية القريبة من الجامعة كان الملتقى ..
أنا قد أوقفتني الإشارة ..وأنت تسير في الشارع ..
أوقفتك امرأة كبيرة في العمر و تكلّمت معك ..

لا أعلم لِمَ شَتَمتُها في سرّي..
هي تحدثت معك عند رؤيتك للمرة الأولى و بكل بساطة ومن دون تخطيط ..
وأنا لا استطيع الحديث معك ..حتى أنني لا استطيع النظر إليك ..
أصبحت أهرب من المكان الذي تتواجد فيه ..
فرط النظر إلى العيون (حب)
الإقتراب (حب)
وفرط التجاهل (حب من نوع آحر)
والهروب من التلاقي (عشق)
أوقفتني الإشارة طويلاً فدخلتَ أنت للجامعة قبلي ..
ووصلت بعدك بدقائق قليلة ، رأيتك تجلس في الطابق الأول ..
فأسرعت و صعدت للطابق الثاني بلا هدفٍ ولا وجهةٍ..
أنا فقط أخشى لقائك ..
تجاوزت مرحلة الخوف من عيوني ..
صرت أخاف من كُلّي..
ارتباكي غدا واضحاً جداً..
أظن أن داخلي أُشبع حبّاً و أصبح يترسّب على خارجي تكاثر حبّي كثيراً و انتشر .. أصبح في المرحلة الرابعة ..ستفشل معه كل طرق العلاج ، إلا بك ..

الساعه الآن 11:54 بقي 6 دقائق للامتحان ..
متجاورون نحن في القاعات ..
و أقف بعيدةً جداً عن قاعاتي لأنك تقف بالقرب منها ..
عندما هممتُ بالدخول ، ثبّتُّ عيوني بالأرض و
أسرعت في مشيتي ..تجاوزتك مسرعة و دخلت إلى
القاعة ..
ولم أخرج منها حتى نهاية الوقت ..
كنت أنتظر فرحة حل السؤال الأخير ..وضحكة اللقاء
عندما أرى صديقاتي ، والكثير من السعادة فهو آخر
يوم للتعب والدراسة ..

لكنَّ رغبتي بكل هذا انطفأت ..
أطفأها طول الانتظار ..
" أكثر ما أخافه أن تنطفئ رغبتي تجاه أمر تمنتيته
طويلاً ، أن يبهت بريق عيناي و أستسلم بعد محاولات
عديدة من المقاومة للوصول "

خرجتُ من الامتحان متأخرةً على غير عادتي ..
وأنتَ ذهبتَ إلى بيتك مبكراً على غير عادتك..

لم أحظى بفرصة وداع ..
تمنيت لو ألتقي بك في أي مكان ..
غداً سأسافر أنا ..
ولا أدري متى ستسافر أنت !
فهل تُرانا نلتقي ؟

****

السادس والعشرون من يناير..
أتممت تجهيز حقائبي ..
وأخيراً سأعود..
في الغربة لا نعد الأيام وحسب...نحن نعدُّ الدقائق التي تفصلنا عن العودة ..
ودعت بيتي البارد الموحش ، وخرجت و أغلقت خلفي بابه وأنا أبتسم ..كأنني أغلقت الغربة ..الوحدة ..لكن هي أيام قليلة و سأعود..
رتبت حقائبي في السيارة و انطلقت إلى المطار..
كل شيء من حولي جميل..
الجبال ..الأشجار .. الأصوات .. الوجوه..
أودُّ لو أبتسم لكل من أراهم في الطريق..
لا شيء يشبه العودة لأحضان الأهل ..
يا ليت عودتي كانت إلى سوريتي ..

لمَا احتجتُ طائرة تقلّني ..كنت سأطير من السعادة و أصِل لها بلا مواصلات ..
دخلت المطار..
شتان ما بين الشعورين عند دخوله ..
عندما أدخله بعد الإجازة أراه كئيباً جداً..
وعندما دخلته الآن رأيته طريقاً للسعادة و درباً للوصول..

يا الله كم تتباين المشاعر في هذا المكان ...
ما بين مُودّع ومستَقبِل..
ما بين عائدٍ و مسافر..
أتممت إجراءاتي ..
وجلست في صالة المسافرين ..
أمسكتُ جوالي وكالعادة أدخل بدايةً على أول اسم في قائمةِ البحث ..
أنتَ في المطار ؟!؟!؟
يا إلهي ما هذه الصدفة الجميلة ؟؟
حاولت أن أركّز في صورتك أكثر لِأعرف مكان تواجدك ...
عيوني تجوب المكان باحثةً عنك ..
أنتَ هنا ، نعم وجدتك .. تقف على يميني..

كل الأشياء الجميلة في وقت واحد ..
رأيتني أنت أيضاً وابتسمتَ ، لكنني تجاهلت وجودك و تظاهرت بالانشغال ..

طائرتك في الساعة الخامسة و طائرتي في الخامسة أيضاً..
ستعود إلى وطنك و إلى أهلك ..
تبدو سعيداً مثلي ..لكن ينقصني عنك وطن ..
توجهتُ إلى طائرتي ..و توجهتَ إلى طائرتك ..
نظرتُ لك نظرةَ مودعٍ..و لوحت أنت لي ..
يا إلهي !كيف حدث ذلك ! لأول مرة تبدو مشاعرك واضحة إلى هذا الحد ..

ثم طرنا إلى السعادة
لا أعتقد أن هناك مستحيل أكثر مما حدث ..
من عِراقك جئت ومن سوريتي أتيت ليجمعنا القدر على هذه الأرض ..
ثمَّ ها نحن نلتقي في السماء ..
نطير في الجو معاً على اختلاف وجهاتنا ..
جمعتنا الأرض و جمعتنا السماء ..
فهل سيجمعنا الحب ؟؟

قد يقرأ الجميع ولا تقرأ..
وقد تقرأ ولا تفهم ..
ربما تجد نفسك بين السطور ..
وترى بعض الأشياء التي تشبهك ..
أو تقرأ عن مواقف كنتَ فيها ..
ربما ترى في ملامحك شيئاً من وصفي ..
فتشكُّ أنك المقصود..
وقد تتردد أحياناً وتظنُّ أنك قد أسأت الظن ..
و تبقى روايتي أحجيةً بين يديك ..
لن أدعك تعلم من أنت ..
و لن تعلمَ من أنا..
لكن ..
يا ليتك تعلم !

لن تكون النهاية ..

راما الرمحي